سر الاعتراف – أسئلة وأجوبة

الأرشمندريت زخريا زاخارو

تتمّة المقالة الصادرة في العدد الماضي

س1: هل علينا الاعتراف في كلّ مرّةٍ نريد فيها أن نشارك في سرّ الإفخارستيّا (المناولة)؟

ج1: أعتقد أنّ الاعتراف يكون عند الضرورة. نبدأ أوّلًا باعترافٍ عامّ، وبهذا الاعتراف ندخل إلى الكنيسة. يشبه الأمر اغتسالًا شاملًا نتخلّص به من كلّ ما يتعلّق بإنساننا العتيق، لكي نستطيع أن نبدأ مجدّدًا حياةً جديدة. ثمّ نتقدّم إلى سرّ الاعتراف من وقتٍ إلى آخر، بحسب حاجة كلّ واحدٍ منّا. وأعتقد أنّه من الأفضل أن يعترف المؤمن أربع مرّاتٍ في السنة على الأقلّ.

ليس علينا أن نرتكب جريمةً كي نعترف، نشكر الله على ذلك. مع ذلك، علينا أن نقصد الكاهن من وقتٍ إلى آخر ونقول: "أنا آسف، لأنّني لا أحبّ الله كما يجب أن أحبّه، وكما أوصانا هو أن نحبّه، فأنا لا أحبّه من كلّ قلبي ومن كلّ فكري ومن كلّ قدرتي". هذا اعترافٌ جدّيٌّ للغاية، لأنّ هذه هي الوصيّة العُظمى، فإن فشلنا في حفظها، علينا الاعتراف بذلك. وعندما يرى الربُّ تواضعنا، سيمنحنا، بتواترٍ أكبر، نعمةَ الاقتراب منه والتقرُّب إليه.

نحتاج من وقتٍ إلى آخر إلى أن نقصد الكاهن ونقول: "للأسف، إنّي جاحدٌ تجاه الربّ، لا أشكره كما يليق من أجل كلّ إحساناته إليّ". وبهذه الطريقة نعترف بجحودنا. عندما نعترف، نرى أنفسنا في مرآة وصايا الله. إذا كنّا نفتقر إلى المحبّة نحو أقربائنا، نعترف بأنّنا مقصّرون في إظهار المحبّة لهم كما أوصانا الله؛ نعترف بأنّنا فشلنا في إتمام الوصيّة العُظمى الثانية، مثلما فشلنا في إتمام الأولى. ثمّة أمورٌ معيّنةٌ يمكننا الاعتراف بها دائمًا أمام الله. فجميعنا نستسلم لأخطاء وهفوات، وأنا كذلك، أكثر من الكلّ.

لا يمكننا القول: "لقد اعترفنا مرّةً واحدةً وهذا يكفي، وليس من الضروريّ [الاعتراف مجدّدًا]". يُشبه الأمر امتلاكنا بستانًا مليئًا بالخضار والفاكهة الواعدة. نستمرّ في إزالة الحشائش الضارّة من البستان، ولا نزيلها مرّةً

واحدةً فقط ثمَّ نتركها لتنمو مجدّدًا. نستمرّ في إزالتها لكي نتمكّن من الحصول على ثمارٍ أكثر وأفضل من البستان. وينطبق الأمر عينه على الاعتراف. إذا واصلنا إزالة الشرور التي يودّ العدوّ تثبيتها في قلبنا، سنكون أفضلَ حالًا بالتأكيد. سنمتلك قلبًا أقوى لمواجهة العدوّ.

أعتقد أنّه من الجيّد لنا أن نعترف اعترافًا عامًّا في بادئ الأمر، وأن نعترف لاحقًا بحسب الحاجة. علينا أن نقدّم حسابًا لله بانتظام، وألّا نكشف له عن المساوئ التي فعلناها فحسب، بل وأيضًا عن الأمور التي نقصّر في فعلها، والتي أهملناها ولم نقم بها. بهذه الطريقة، إذا كنا جديّين في علاقتنا مع الربّ، سيتعامل هو أيضًا معنا بجدّيّة، ويجعل حياتنا في المحبّة أغنى بنعمته.

س2: قال المسيح إنَّه إذا غفرنا لمَن أساؤوا إلينا، فإنَّه سيغفر خطايانا. هل يعني هذا أنَّ هنالك طريقتين للاعتراف – إحداهما بالاعتراف أمام كاهن، والأخرى بأن نغفر لمَن يُسيئون إلينا؟

ج2: ثمّة طرائق كثيرةٌ للاعتراف، وليس اثنتين فقط. مثلًا، اذا تبرّعنا بالمال كعملٍ للخير، يساعد ذلك في غفران خطايانا. في كلّ مرّةٍ نتصرّف بتقوىً، أي نعمل عملًا صالحًا بحسب مشيئة الله، نتلقّى نعمةً ومنفعة، وتمحو تلك النعمة الخطايا من قلوبنا. هناك طرائق كثيرةٌ للاعتراف، وليس اثنتين فقط. ولكنّ أهمّ شرطٍ مُسبَقٍ لنيل الغفران هو أن نغفر نحن بدورنا. إذا لم يتحقّق ذلك الشرط، إذا لم نغفر بدورنا، فإنّ جميع الأعمال الصالحة الأخرى، والتي يمكننا أن ننال المغفرة بواسطتها، سيَبطُل مفعولها وتُلغى.

س3: إذًا، لا يشكّل الاعتراف وحده الطريقة الفُضلى، بل ينبغي للمرء أن يكون شخصًا صالحًا أيضًا؟

ج3: بالطبع. وتعرف أنّ الكاهن هو بمنزلة أمين سرّ الكنيسة. إذا أردتَ أن تصبح عضوًا في نادٍ، تمرّ بأمين السرّ وتملأ بعض الاستمارات وما إلى ذلك، وتصبح عضوًا في هذه المنظّمة. الأمر كذلك في الكنيسة، فالكاهن هو الشخص الذي يُصادق على مصالحتنا مع الله، وعلى كوننا أعضاء في جسد المسيح والكنيسة، ومستحقّين أن نتلقّى جميع عطايا هذا الجسد، التي هي الأسرار المقدّسة للكنيسة. يُضحي الكاهن شاهدًا، وأداةً لله تساعد المؤمنين على التقرُّب من الله.

يشبه الكاهن رجلًا يقف واضعًا يده على كتف الربِّ، واليد الأخرى على كتف المؤمن، متوسّطًا لمصالحتهما لتجديد صداقتهما. على الكاهن أن يحبّ الله والناس، ولكن يجب أن تكون محبّته لله قويّة، لكي يتمكّن من نقل هذه المحبّة إلى النّاس الذين يحاول خدمتهم.

أردتُ أن أقول أيضًا: لا تخافوا الاتّضاع أمام الكاهن، فالكاهن ليس شخصًا يريد أن يستغلّ تواضعكم، بل يريد مساعدتكم. في الحقيقة، أريد أن أشارككم شيئًا تعلّمتُه عندما أصبحتُ كاهنًا ومعرِّفًا: عندما يرى الكاهن شخصًا آتيًا إليه لكي يعترف بتواضع، يمتلئ ذهولًا ورعدةً لأنّه يرى يدَ اللهِ على هذا الشخص الذي يريد اللهُ مساعدته، فيقوم بكلّ شيءٍ ليعمل مع الله على تجديد ذلك الشخص. لذلك، لا تخافوا. إنّها لحظةٌ عظيمةٌ [لحظة الاعتراف] بالنسبة إلى الكاهن، لذا فهو يحاول أن يكرّم الذين يأتونه للاعتراف.

أتذكّر الأب صفروني قائلًا لي بوضوح: "عندما يأتي الناس ليعترفوا أمامك، لا تنظر إليهم كما هم. بل أُنظر إليهم كما يمكن أن يصبحوا عندما يقتبلون نعمة المسيح". علينا أن نُبقي دائمًا في ذهننا الكرامة التي قد ينالها هؤلاء الناس، الذين هم على صورة الله، من سرّ الكنيسة هذا.

س4: إذا شعرنا بأننا غير مستحقّين أو أنّنا في حالة اضطراب، هل يجب أن نمتنع عن المناولة؟

ج4: نشعر أحيانًا قبل القدّاس الإلهيّ بأنّنا مثقَلون، لأنّنا نتذكّر بعض الأمور: كلماتٍ قلناها أو أفكارًا أو ما شابه ذلك. وقد نشعر بعدم الارتياح، أو حتّى بالشكّ، تجاه التقدُّم إلى المناولة. ماذا علينا أن نفعل في هذه الحالة؟ يعتمد ذلك على مدى خطورة خطايانا وأفكارنا، وتأثيرها علينا. لكن بعامّة، إذا لم يكن الأمر خطيرًا جدًّا، فمن الأفضل لنا أن نتوب أمام الله بدُعاءٍ حارٍّ ونسأله أن يشفينا، أن يشفي قلوبنا ونفوسنا ويطهّرها من كلّ نيّةٍ شرّيرة، كما نصلّي [نحن الكهنة] في إفشين التسبيح الشيروبيميّ، "طهّر نفسي وقلبي من كلّ نيّةٍ شرّيرة". إذا ثابرنا على هذه الصلاة، يعطينا الربّ الحرّيّة والنعمة، ونشعر بزوال الثقل، لا سيّما إذا كنّا قد صلّينا بدموعٍ لأنَّ الدموع شافيةٌ دومًا. دائمًا ما تجذب دموعُ التوبة الشفاءَ إلى النفس. عندها، نشارك في القدّاس الإلهيّ ونتقدَّم إلى المناولة.

قد تكون الظروف والأوضاع صعبة، وتتعذّر علينا رؤية أبينا [الروحيّ] للاعتراف. في هذه الحالة، نُقدّم توبةً صادقةً لله، وننال مباشرةً غفرانه، وبعدها نذهب للاعتراف. وعندما نلتقي بأبينا الروحيّ، يمكننا أن نفصح له عن تلك الأمور، مع أنّ الله قد سبق له أن منحنا الغفران والشفاء. نذهب للاعتراف لكي نضع ختمًا على ما قد حصل، ونتقوّى أكثر فأكثر في مواجهة العدوّ والخطيئة.

إنّ المسألة حسّاسة، وما من وصفاتٍ لها، بل لكلٍّ منّا طريقٌ خاصّةٌ نحو الله في علاقتنا معه؛ وعلينا أن نعمل بجهدٍ لكي لا ننحرف عن هذه الطريق. علينا أن نصرخ إليه لكي يحفظنا في الطريق، وهو الطريق إذ قال: "أنا هو الطريق والحقّ والحياة". فإذا فعلنا هذا، سيُقوّينا الربّ ويمنحنا نعمته التي تُبرّر وتُنوِّر، وتُقدِّس أيضًا.

س5: غالبًا ما نرى، نحن الكهنة، أناسًا يأتون ليعترفوا، لكنّهم يعترفون مرارًا وتكرارًا بطريقةٍ ميكانيكيّة. ما أهميّة أن يتعلّم الناس اكتساب خبرةٍ شخصيّةٍ من خلال الصلاة، وأن يكتشفوا بأنفسهم كيفيّة التغلُّب على التجارب؟

ج5: حسنًا، لهذا السبب، قبل أن نتوجّه للاعتراف، نصلّي إلى الله لكي يُرينا الأمور التي علينا أن نُصلحها، والأمور التي قصّرنا في فعلها، لكي نتمكّن من ذكرها خلال الاعتراف. نقول في الذكصولوجيا التي نرتّلها قبل القدّاس الإلهيّ: "بنورك نعاينُ النور". بنور نعمة الله، بالاستنارة التي يمنحها الله لنا، نحصل نحن على النور. نستنير لكي نرى حالتنا الحقيقيّة، وهذه هي الحالة التي نقدّمها لله. وإلّا فلن نستطيع أن نتقدّم. إنّها علاقة؛ إنّها علاقتنا بالله. إنّها علاقةٌ شخصيّة، وعلينا أن ننمو في هذه العلاقة الشخصيّة مع الله. يجب أن يصبح الله صديقَنا. هذا هو معنى المصالحة مع الله. في اللغة اليونانيّة، كلمة "مصالحة" تعني "أن نصبح أصدقاء من جديد" مع الله. علينا أن نصبح أصدقاء لله. وعندها طبعًا، حيث يكون الله، يكون أصدقاؤه، كما وعد: "حيث أكون أنا، يكون أصدقائي وخدّامي" (انظر يو12: 26).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Zacharias Zaharou (2023). *The Sacrament of Confession.* Monastery of Saint John the Baptist, Essex, UK. essexmonastery.com